الحلقة الثانية والثلاثون

(1) (قصر علي باشا.. شهربان.. هيلدا.. كونراد)
شهربان: ما أسعدني بلقياك ثانية يا كونراد..
هيلدا: باركي لكونراد بمنصبه الجديد.. نال شهادة الحقـوق وعـين معاونا للسفير الألماني الحالي.. وبعد بضعة أعوام من الخبرة يحـل مكانه في السفارة..
شهربان: ما هذه الأخبار الحلوة التي تنعش القلب؟
هيلدا: تستطيعين التحدث معه بالعربية يا شـهربان.. وأنـا صـرت أفهمها..
شهربان: أبهذه السرعة تعلمت اللغة يا كونراد؟
كونراد: عندنا في ألمانيا مدرسة تعلم اللغـات الـشرقية: العربيـة والتركية والفارسية للذين يراد ايفادهم للعمل في سـفاراتنا، فـاخترت العربية لأعين في لبنان..
هيلدا: سهل له والدي هذا التعيين ليكون قربي، قبل أن ينقـل الـى تركيا (تفتح علبة وتخرج منها ثوبا علـى الطـراز الألمـاني وردي اللون) أنظري ما أحضره لك كونراد لتحضري به حفلات الـسفارة عندنا..
شهربان: أية حفلات في بلد مسلم! حتى اليشمق لاأحب الخروج فيه سافرة الوجه، وأرتدي الملاءة وأغطي الوجه بمنديل أسود شـفاف.. ولكنني أستطيع لبس الثوب في الأعراس.. وعن قريب عـرس ابنـة أخي محمود.. ولكن ما أخبارك يا هيلدا؟ انقطعت عني مـدة طويلـة فظننت أنك سافرت أو تزوجت..
هيلدا: لم أسافر لأنني كنت أنتظر عودة أخي كونراد، ولم أتزوج لأن القطار فاتني، وكل من في السفارة أصغر مني سنا وأقـل تجربـة.. السياسة تشغلني عن التفكير في الزواج ولكنها متعة لي.. هكذا أكون أكثر حرية واستقلالا.. وأنت ما هي أخبارك؟
شهربان: انضم أولادي إلي، وبنتي باكيزا لا تزال ترضـع، بعـد أن توفيت جدتهم أم مراد.. ولكن ما لبث أن جاء عـم والـدهم يطالـب برعايتهم، واستطاع أن يقنع عثمان ومصطفى بالعودة الى اسـتنبول لإكمال دراستهما.. وبقي عندي سليمان وعلي الذي أهديته القطار..

هيلدا: آه، نموذج القطار الذي أهدي لوالدي (الى كـونراد) أتـذكر مشروع مد سكة الحديد من البوسفور الى أنقرة؟ انه الآن قيد التنفيـذ بعد أن حصل الرأسمالي ألفرد كارلا على الإمتياز..
شهربان: جن علي فرحا به.. يفرده بفخر أمام رفيقاته مـن أقـارب محمود، وأمام إخوته حين انضموا الي ويريهم كيف يتركب ويعمـل على سكة الحديد..
كونراد: أين وصل عثمان ومصطفى في دراستهما؟
شهربان: عثمان في السنة الأولى في كلية الطب، ومصطفى يبقى لـه عام ليلتحق بأخيه.. لقد قرر كلاهما دراسة الطب..
كونراد: ان من يريد أن يبلغ شأوا في المجتمع، إما أن يدرس الحقوق أو يدخل الكلية العسكرية..
شهربان: كلاهما لا يرغبان لا في الحقوق، ولا في الكلية العـسكرية كوالدهما..
كونراد: أتعلمين عن وصول البعثة العسكرية الألمانية برئاسـة فـون ديرغولتس الى تركيا، لإعادة تنظيم جيشها بعـد احـتلال الإنجليـز لمصر؟ ان سياسة ألمانيا لم تتبدل في ولائها لتركيا، ودعمهـا تجـاه مطامح روسيا وانجلترا وفرنسا في تقسيمها..
(2) (مقر لسان الحال.. الأسير وخالد)
الأسير: سأسلمك يا خالد رئاسة تحرير لسان الحال.. انني متعب ولا أحسب الحياة ستطول بي.
خالد: أطال الله عمرك يا أبو محمود.. إبق لي مرشدا وناصحا، وأنـا أقوم بكل الأعباء المجهدة عنك..
الأسير: أريد أن تخفّ أعبائي حتى في التدريس، وأتفرغ لدراسـاتي فهي وحدها التي تبقى بعدي، وتشفي نفسي..
خالد: الشباب في الروح، وأنت أكثر شبابا في روحك ممن هم فـي مثل سني..
الأسير: أصبحت عصبيا لا أطاق.. أم محمود انتقلت الى الفيلا التـي بناها حسن لسكناه ومعها فريدة وعبد الرحمن.. شعرت بالراحة، مـا عدت أطيق شغب الصغار وصياحهم وشـجارهم.. أريـد الإنفـراد بنفسي، أراجع ما أنجزته في عمري، وأحاسب نفسي عما أخطأت به في حياتي عسى أن يغفر لي ربي..

خالد: ألك أخطاء تحاسب عليها؟ حياتك كانت منارا، وعطاء قادت به جيد السماء..
الأسير: نعم أخطأت حين تزوجت فاطمة.. أنانيتي هي التي دفعتني لأجدد شبابي بشبابها، فعاقبني الله بسلبها مني بعد أربعة أعوام من زواجها، ولم أكتف بهذا بل أنجبت منها ولدين لأحمل غيري رعايتهما، وأنا أعرف أن صحتها لا تحتمل انجابا متواصلا.. جاءتها الإنفلونزا وهي أوهن ما تكون عافية وقضت عليها!
خالد: لا تحمل نفسك ما أراده القدر لها.. انك مؤمن بأن ما ينالنا من خير أو يصيبنا من شر مكتوب لنا في لوحة القدر..
الأسير: ليس بعد فقدها.. ان الخير والشر الذي نلقاه هو نتيجة لأعمالنا، والأقدار تعرف النتائج ولا تبالي بالمقدمات التي سببتها..
خالد: انك أحسنت معاملتها، وكانت سعيدة معك..
الأسير: ما أدراني بما كان يكنه قلبها؟ أتعرف من كان قربي يوم جنازتها، ونحن نواريها القبر، ونهيل عليها التراب والأزهار؟ كان ذلك المهندم الذي أخذ يبكي بحرقة قربي هو زوجها.. نظر الي نظرة غاضبة وقال: ماكانت لتموت لوبقيت قربي.. كانت تحبني وأنا أحبها، ففرقت ما بيننا! أحسست حينها أن السماء نفسها غاضبة مني، كان بالإمكان أن ينصلح حاله معها حين تنجب له الأولاد وتعيش في سعادة معه، ولا تقضي عليها الإنفلونزا! (الشيخ ينخرط في بكاء حاد) لماذا لم تنج منها كما نجت حنيفة وباقي الناس؟ انها عقوبة الأقدار لي ياخالد!

(3) قصر علي باشا.. شهربان تهيئ نفسها لحضور عرس ثريا ابنة مصطفى.. تخرج الثوب الوردي من علبته وترتديه.. تساعدها وصيفتها في اللمسات الأخيرة وتصفف لها شعرها)

الوصيفة: أتلبسين اليشمق والإزار أم الملاءة والنقاب؟
شهربان: بل اليشمق والإزار.. كم عرسا سأحضر؟ (الوصيفة تحضر لها اليشمق والإزار الإسود المطرز وعددا من المناديل تختار منها مايلائم اليشمق، وتلتفت الى باكيزا لإلباسها الثوب الأزرق المكشكش من قماش الأورجنزا الذي أحضرته والدتها لها للمناسبة.. علي وسليمان سبقاهما في ارتداء ثيابهما الفرنجية الرسمية، ومن قبتيهما البيضاوين تطل عقدتان على شكل فراشة حمراء.. يقفان في الباب يتأملان والدتهما وأختهما)

شهربان: الى (سليمان) أغلق جميع نوافذ القصر الخارجية يا سليمان.. لا أحد بقي في القصر الاّ نحن.. الكل سبقونا للمساعدة.. وسـأعطيك المفاتيح لتعطيها لعمك محمود..
سليمان: أين يكون العرس؟
شهربان: في فيلا الدكتور حسن للنساء، وفي فـيلا المهنـدس أمـين الشامي يجري العقد ويأتي المأذون.. ويكون والد العروس نائبا عنهـا في توقيع العقد..
سليمان: وأنا أين يكون مكاني؟
شهربان: ان طولك كاف لتكون بين الرجال.. فقـط بـاكيزا وعلـي يكونان معي..
سليمان: ألن أشاهد العروس؟
شهربان: تشاهدها فيما بعد في أيام المباركة.. هذا اذا سمح زوجهـا بذلك..
سليمان: ما هذا العرس الذي أذهب اليه ولا أرى فيه العروس؟ فقـط لتمتد الموائد ونأكل الطعام!
شهربان: قد يأتون بمغن يحيي الفرح، وربما يرقص الشباب رقـصة السيوف ويدبكون الدبكة اللبنانية.. أنا لا أعرف تماما ما يجري فـي الأعراس اللبنانية، سترى هناك خالد فتصرف كما يتصرف..
(سليمان ينزل من العربة عند باب حديقة المهندس، يشاهد خالد بـين المستقبلين.. العربة تستمر في سيرها الى فيلا الدكتور حسن)
سليمان: مسلما (يعرفه خالد على المجموعـة التـي معـه.. يـسأله سليمان)
سليمان: هل رأيت عمي محمود.. أريد أن أعطيه المفاتيح)
خالد: انه في الداخل، تعال معي لأدلك أين يكون (وهمـا سـائران) أخبرني كيف حال أخويك، وأين بلغا؟
سليمان: عثمان سنة أولى في كلية الطب، ومصطفى يلحق به بعـد عام.
خالد: وما هي أخبار جلنار؟ هل تزوجت؟
سليمان: كلا، انها تعيش مع أختها أليسار وترعى ولديها..
خالد: إبعث اليها برسالة وقل لها أن خالد أصـبح رئيـسا لتحريـر صحيفة لسان الحال، ومدرسا للغة العربية في كلية الثلاثة أقمار.. فان

كانت ترحب بالعودة الي، آتي الى تركيا وأردها وأصطحبها معي الى لبنان..
سليمان: (فرحا) سأفعل ذلك بكل تأكيد وستفرح أمـي بهـذا الخبـر، فلطالما تحسرت على حظها العاثر في التخلي عنك، ووقوعهـا بـين براثن عمها الجبار.. فهي في تركيا لا يفكر فيها وهي مطلقة أحد من الأمراء، ولا تستطيع الزواج بأحد من عامة النـاس الـذي ترفـضه عائلتها..
خالد: ها هوعمك محمود يا سليمان جالسا قـرب والـده يتحادثـان، وقربهما مصطفى والد العروس.. انني أنتظرك قرب باب الحديقـة.. (يقترب سليمان مسلما.. يناول محمود المفاتيح)
سليمان: سأذهب مع خالد، فأنا لا أعرف أحدا هنا سواه (يلحق بخالد)
مصطفى: (الى والده) أهكذا تسلم رئاسة تحرير لسان الحال الى خالد وتفضله علي؟
الأسير: (يتجهم وجهه بعد ابتسام) ليست لسان الحال ملكي بل ملـك الناس الذين يقرؤونها في الوطن العربي كله.. انها تحل محل الجوائب التي أغلقت في تركيا.. وحين أختار لرئاسة تحريرها مـن يخلفنـي أختارمعاوني، الرجل الكفؤ المدرب، القادر على حمل هـذه الأمانـة الشاقة.. أنت لست أهلا لهذا الحمل الثقيل الذي يهد الجبال، وأنا لست محمد علي باشا يهدم رابطة الإسلام ليورث ملكا لبنيه.. خالد رجـل تمرس بالصحافة منذ نعومة أظفاره، وهو رجل موهوب ضليع فـي تاريخ تركيا.. يعرف ما يجري في قصور سـلاطينها، وصـراعات القوى فيها، وهو الى هذا رجل متفرغ لا يحمل هموم أسرة كبيرة كما تحمل..
محمود: لماذا تعكر مزاج والدنا يا مصطفى؟ (الى والـده) ان والـد البنات في لبنان لا يحمل هما.. زوج حنيفة منذ عـامين الـى تـاجر ميسور الحال، وها هو يزوج ابنته اليوم الى مهندس ناجح يسكنها في فيلا كالأميرات دون أن يكلفه شيئا.. لا يريد الاّ أن ينتسب الى ناصع اسمك وغزير علمك وحكمتك و...(الأسير يقاطعه خجلا)
الأسير: أصمت يا محمود، الناس يتوافدون فقم لاستقبالهم.. وأنت يـا مصطفى لا تعكر نفسك في عرس ابنتك واستقبل ضيوفك..
(4) (قصر علي باشا.. برق وهزيم رعـد، وأمطـار غزيـرة، وعاصفة تلوي الأشجار، تدخل باكيزا غرفة والديها باكية)

باكيزا: ماما أنا خائفة! دعيني أنام قربك!
شهربان: لا! أهي المرة الأولى التي تسمعين فيها الرعد؟ لم الخوف؟
باكيزا: لا أقدر أنام أرجوك ماما أنا خائفة! دعيني أنام قربك..
محمود: تعالي حبيبتي! في مثل هذه الليلة تستدفئ فريدة في سـرير جدتها، وعبد الرحمن في سرير والده!
شهربان: محمود لا أرغب أن تدلل الطفلة كثيرا، فتنشأ جبانة، عودي إلى غرفتك باكيزا!
محمود: حرام يا شهربان! الطفلة في الرابعة من عمرها تحتاج إلـى اطمئنان.
شهربان: لم ينام علي في استغراق، وهي تلج في البكاء؟ ربيت أبنـاء أربعة ما كان أحدهم يجرؤ أن ينام في سريري! كيـف أعلمهـم إذن الاستقلال!
محمود: كلهم صبيان. لم تربي مرة بنتا، دعيها تشعر بحنانك فهذا لا يضيرها!
لا أريد أن أختلف معك في هذا الأمر. صبي أم بنت علي أن أنشئهما على صلابة ليتحديا الزمان. عودي باكيزا الـى فراشـك، وأطيعـي أوامري. (تخرج باكيزا باكية) سليمان عودها عادة سيئة، أن لا تنـام إلا حين يعزف لها على الكمان!
محمود: الحمد لله أن سليمان كان يعوضها حنان الأم (يـدير ظهـره لشهربان عند النوم وتستمر شهربان بقراءة رواية بالتركية)
شهربان: (على وشك أن تطفئ المصباح لتنام، تسمع طرقـا علـى الباب الخارجي فتهز محمود) محمود أصغ هل نمت سريعا؟ (الطرق يزداد) أهو طرق على الباب؟
محمود: (يصحو) من يزورنا في هذه الليلة الظلماء؟ (يرتدي معطفـا فوق منامته ويخرج لفتح الباب).
شهربان: (تسمع صوت هيلدا في الخارج فترتدي معطفا فوق منامتها وتخرج لاستقبالها مع كونراد.. محمود ينشغل بإيقاد المدفأة التي خبـا نارها بتزويدها من جديد بالحطب)
كونراد: (بعربية فصحى محاولا تدريب نفسه علـى الحـديث مـع شهربان) هاجمتنا العاصفة ونحن في طريقنا إليك.

هيلدا: (إلى شهربان) نحن على عجلة، جئت وكـونراد لنحـذركم بترك القصر في الحال.. لقد علمنا في السفارة من مصادر وثيقـة أن القصر معرض للاقتحام!
شهربان: (في ذعر) أين نذهب في مثل هذه الليلة؟
هيلدا: سنستضيفكم في سفارتنا إلى أن تنجلي الأمور، فإن اشـتدت نساعدك على الخروج من البلد، الثورة على الأتراك ناشبة فـي كـل الولايات، وعلينا للصداقة القديمة ما بيننا، أن ننقذكم قبل فوات الأوان!
(يسمع طرق على الباب، يذهب محمود ليرى من القادم)
محمود: (لنفسه) ليحم الله هذه الأسرة من تقلبات الأزمان! (صـوت الأسير في الخارج):
الأسير: افتح يا محمود! (يدخل الشيخ مذعورا) عليك يا محمـود أن تترك القصر في الحال، جاءت النذر إلى صحيفة لسان الحال، عـن التهاب الثورة في لبنان. جئت على الفور لأنقاك وأسرتك إلى بيتي!
محمود: يا الهي! ماذا جرى؟
الأسير: الأخبار لا تسر! الثائرون علـى حكـم الأتـراك ينـوون بتحريض من الأجانب على دك مؤسساتهم العسكرية والتموينية فـي لبنان، ومهاجمتهم في منازلهم، وقصر علي باشا أول ما يقـتحم فـي مخططاتهم.
محمود: لا حول ولا قوة إلا بالله! أدخل يا والـدي، عنـدنا هيلـدا وأخوها كونراد، ولعلهما جاءا لتحذيرنا لنفس الأسباب. (يدخل الأسير ومحمود الصالة)
شهربان: (منفعلة) ماذا جاء بك يا عمي في هذه العاصفة الهوجاء؟
الأسير: لقد فاجأتني وأنا في طريقي إليكم..الأخبار سـيئة والـوضع الأمني منفلت في البلد.. جئت مسرعا لأحذركم وأنقلكم إلى داري فهي أكثر أمنا لكم!
شهربان: هذا ما كانت تحدثني عنه صديقتي هيلدا قبل قليل. علمـت منها ما يجري في لبنان، وأن القصر معرض للاقتحام. أنا لن أغـادر القصر إلى أي مكان، فإن قدر لي الموت أموت في فراشـي ومعـي أولادي!
الأسير: لا قدر الله! ليس هذا بالقرار الحكيم يا شهربان! كل شيء في القصر يعوض، أما أنت وأولادك فكيف تعوضون إن نـالكم الـسوء؟ أنت لا تعلمين بمآسي الفوضى إذا عمت. عليك أن تفكري بـسلامتك

وسلامة أبنائك قبل كل اعتبار!أنتم المستقبل وخـسارتكم لا تعـوض وتترك الحزن في قلوب الذين يحبونكم أبد الدهر!
شهربان: (بصوت متهدج والدموع في عينيها) تقترح علي هيلـدا أن أنتقل وأولادي إلى السفارة وهم يؤمنون حمايتنا وسفرنا إلى اسطمبول بسلام. كيف أسافر وأترك باكيزا ومحمود في لبنان؟ إنني بتّ ممزقة بين معسكرين يقتتلان! ولو بقيت وباكيزا هنا كيف أحتمل سفر سليمان وعلي المهددان في بقائهما هنا إلى اسطمبول؟ قد لا أراهما ثانية أبدا! سيكون فراقا أبديا والشرخ يتفاقم بين تركيا ولبنان!
الأسير: أعلم أن الفراق عليك مرير ولكنه أهون من أن تخـسريهما إلى الأبد.. لنا من الذي جرى في البلقان عبرة، كان الأتـراك هنـاك يذبحون كالأنعام..أنقذي ولديك ولو كان الأمر شاقا عليك، ولا تتركي فرصتهما الوحيدة للنجاة تفلت من يديك!
هيلدا: (إلى شهربان بالألمانية) ماذا يقول الشيخ عن علي وسليمان؟
شهربان: ينصحني بسفر علي وسليمان إلى اسطمبول، وأنها فرصتهما الوحيدة للنجاة من الهلاك!
كونراد: (إلى شهربان) فهمت كل الحوار الذي جرى بينـك وبـين الشيخ.. إنه على حق وهو أدرى بمصلحتك..هيئي حقيبتي سفرهما في الحال لنأخذهما معنا، وثقي أنني سأرعاهما كما هو جدير بالخـال أن يرعى ابني أخته الغالية عليه..أوصلهما بالسلامة إلى اسطنبول حيث ينضمان إلى أخويهما، وأرعى مستقبلهما العلمي..أيقظيهما على الفور، وأخبريهما عن الأسباب التي تستدعي سفرهما، ليحمل كل منهما مـا يريد حمله معه!
شهربان: (إلى محمود) أنا صاعدة لأوقظ علي وسليمان، ولأعـدهما للسفر مع هيلدا وكونراد.
محمود: هيئي أيضا حقيبتين لملابسنا فنحن لا ندري كم يطول غيابنا!
(5) (منزل يوسف الأسير، صبيحة نهار مشرق، الشمس تطل مـن النافذة الشرقية لتوقظ محمود وشهربان باكيزا نائمة بينهما)
شهربان: من يصدق أن الجو يصحو بعد تلك الليلة لعاصفة!
محمود: (ناظرا إلى باكيزا بحنان) يا حبيبتي أنظري إليها كيف تنـام هانئة يشرق وجهها بسعادة لا مثيل لها. اسـتغربت البارحـة كيـف سمحت لها بالنوم معنا!

شهربان: تذكرت كيف لا تنام إلا إذا عزف لها سليمان نغما حلوا على الكمان، وتملّكني شعور بالأسى عليها غريب، كيـف سـتحتمل هـذه الطفلة المتيمة به فراقه! لم أنم طوال الليل وأنا أفكـر بوقـع فـراق سليمان عليها. من يعوضها عنه؟ قبل أن يفارقها سليمان، وقف يتأملها وهي نائمة وقال: كيف تنامين يا حبيبتي الصغيرة بـدون أن يتخلـل أحلامك عزف الكمان! وكان علي يبكي قربه بحرقة توجع القلب. منذ أبصرت باكيزا النور كانت ترى وجه سليمان وهو يعزف لها علـى الكمان وعلي يلاعبها بألعابه! (يدخل عبد الرحمن الغرفـة راكـضا كالصاروخ) أين باكيزا؟ أهي نائمة عندنا!

محمود: لا توقظها! لم تنم كفاية البارحة! اذهب والعب مـع أختـك فريدة!

عبد الرحمن: خاصمتني البارحة فشددت شعرها!

محمود: هكذا إذن! وهل تريد أن تفيق باكيزا لتشد شعرها؟

عبد الرحمن: لا أفعل هذا أنا أحبها!

محمود: لماذا صحوت باكرا؟

عبد الرحمن: أنا أصحو مع أبي حين أسمع أذان الفجر! لكـن حـين صحوت اليوم لم أجد أبي قربي! سألت جدتي عنه فقالت: جاء خالـد في منتصف الليل واستدعاه حتى يذهب إلى لسان الحال!

محمود: (بقلق إلى شهربان) لابد أن أحداثا هامة جرت حتى يستدعي خالد والدي في منتصف الليل!

شهربان: (تنهض من فراشها)

لنذهب للاستفسار من خالة حنيفة!

محمود: (إلى عبد الرحمن) أين جدتك يا عبد الرحمن؟

عبد الرحمن: في المطبخ تعد لنا طعام الإفطار..

(يخرج محمود وشهربان إلى المطبخ)

محمود: صباح الخير أمي.

شهربان: صباح الخير خالتي أم مصطفى!

حنيفة: ما أحببت أن أوقظكما قبل أن يعود الشيخ.. كلّ شيء جـاهز ماعدا مهلبية الحليب!

محمود: هل أخبرك والدي عن سبب استدعائه في منتصف الليل إلى مقر لسان الحال!

حنيف: لا، بالعادة يُستدعى إن كانت هناك أحداث هامـة تـستدعي حضوره لكتابة صفحة رئاسة التحرير. اعتدنا الفطور باكرا وها هـو يتأخر ساعة عن موعده. (يدخل عبد الرحمن وفريـدة لهفـين علـى الفطور لأنهما جائعان، أما باكيزا فتتقدم من أمها وتحضن خـصرها كأنها تشكرها على السماح لها أن تنام قربها. شهريان تملّس شعرها)

حنيفة: العبوا في البستان ريثما أهيئ المهلبية، لن ننتظـر الـشيخ طويلا!

(6) (صبيحة اليوم التالي. يدخل محمود المطبخ جزعا وأمه تهيـئ الفطور)

محمود: أمي أطعمي الصغار وخذيهم إلى بيت أخي حسن وعـودي معه ليرى ما أصاب شهريان.. حرارتها مرتفعة وكانت تهذي طـوال الليل!

حنيفة: ليساعدها الله! لم تكن هينة عليها الصدمة بعد أن علمت كيف اقتحم القصر ونهب ما فيه واحتلّ!

محمود: كانت تنوي البقاء في القصر مع أولادها وتموت معهم حتـى أقنعها والدي بأن لا تترك علي وسليمان يفقدان فرصة الـسفر إلـى اسطنبول والالتحاق بأخويهما هناك!

حنيفة: بنت العز والرفاهية إلى هذا المصير يؤول أمرها! (تـذكر أمرا) بيت حسن خطر على الأولاد منطقته محاصرة. سآخذهم إلـى بيت مصطفى، يلعبون مع نجوى وسلمى، ثـم أذهـب إلـى حـسن بمفردي.سأمزج النشاء بالماء المثلج لتضعه على جبين شهريان فتخفّ الحمى. (يخرج محمود ويستدعي الصغار الذين كانوا في أشد الفـرح وهم يلعبون "الاستغماية" ويستخفون بين الشجر)

محمود: هيا يا أولاد إلى الفطور.. جدتكم ستأخذكم اليوم إلى منـزل عمو مصطفى لتلعبوا مع نجوى وسلمى. (يتـراكض الـصغار إلـى المطبخ. محمود يدخل غرفة نومه ويأخذ في وضع كمـادات النـشاء على جبين شهريان الملتهب، ودموعه تجري على وجنتيه.)

شهريان: (تتمتم بكلام غير مفهوم ثم يعلـو صـوتها بجمـل غيـر متناسقة): ارقصي باكيزا مع رفيقاتك بثوبك المكشكش! آه ما أحلاك! سليمان أغلق نوافذ القصر.. (ترتعش) ها هم جاؤوا.. أسمع تكـسير النوافذ.. إنهم يدخلون.. لا تقتلوا سليمان! إ نه يعزف لبـاكيزا حتـى تنام.. أهرب علي.. لماذا تنتزعون منه القطار وسكة الحديد فهي لعبته

المفضلة.. لا تقتلوه! إنه طفل صغير.. (يختنق صوتها بالبكاء) باكيزا حبيبتي، تعالي نامي قربي.. خبأتك تحت اللحاف فلا يروك.. الأوباش ينزعون عنك اللحاف.. شهريان، شهريان، شهريان! ماذا جرى لـك؟ ترتعش وتنتفض في السرير لرؤيا غامضة) لا تنتزعوا مني بـاكيزا أقتلوني قبلها.. وحيدتي.. تزوجت في الخامسة عشرة ولم أنجب بنتـا غيرها.. لا، لا يا قتلة! تغتصبون طفلة في الرابعـة مـن عمرهـا! وحوش ذئاب فجرة! ماذا فعل لكم علي باشا؟ من آذى مـنكم؟من آذى منكم؟ رجل صالح.. يدافع عن أمة الإسلام! (يدخل حسن والأسـير وحنيفة)

حسن: (لامسا جبينها، مصغيا إلى نبضات قلبهـا) لنحملهـا إلـى مستشفى الجامعة! حمى دماغية أقف عاجزا أمامها!

الأسير: أهناك أمل بالنجاة منها؟

حسن: حالة ميؤوس منها، حتى لو عاشت لا تكون هي نفسها!

محمود: (وقد طاش صوابه) أمي! أحضري لـي شـراب البرتقـال أقطره في فمها.. ألم تعالجي والدي من مرض الكبد فشفي، وأنجـب منك دستة من الأبناء! (ينهـار فوقهـا يقبلهـا) لا تتركينـي وحيـدا ياشهريان! حبيبتي..! آه..! ماذا أقول لباكزا حين تعود إلى البيت فلا تراك..؟ (تأخذ حنيفة بالبكاء بشكل حاد)

(7) (باكيزا واقفة أمام شباك يطلّ على الشارع يمـر فيـه موكـب جنائزي.. يمتد أمام عينيها حقل مـن رؤوس الرجـال وهـم يهتفون: الله أكبر! الله أكبر! تسمع ترتيلا للقرآن بـنغم خاشـع حزين، تمتلئ عيناها بالدموع وهي تصغي بدهشة، تدخل حنيفة)

حنيفة: انزلي حبيبتي والعبي مع فريدة وعبد الرحمن.

باكيزا: لا أريد! أنا مشتاقة لأمي، أين هي أمي؟ لماذا لا أراها فـي البيت؟ (تبكي بصوت خافت) أين علي؟ أمس كانت نجوى تبكـي لأن علي ترك المدرسة. أريد العودة للقصر! أريد أمي! خـذوني لأمـي! خذوني لأمي! (يعلو صوتها بالبكاء)

حنيفة: حبيبتي، أمك سافرت مع علي وسليمان إلى اسـطمبول لأن المدارس هناك أفضل منها هنا.

باكيزا: ومتى تعود؟

حنيفة: عن قريب حبيبتي!

باكيزا: وإذا لم تعد مثل عمتي جلنار؟

حنيفة: لا، ستعود، لأنها تحبك كثيرا، ولأنك الصغرى! أكثـر مـن عثمان ومصطفى وعثمان وعلي! انزلي حبيبتي والعبي مـع فريـدة وعبد الرحمن (يمر النعش مغطّى بالقطيفة المقصبة والأزهار ليصلّى عليه في الجامع القريب)

باكيزا: تعالي جدتي أنظري! ما هذا الصندوق الذي يحمله الرجـال على أكتافهم؟ وما هذا اللحن الحزين الذي يعزف مرافقا له؟

حنيفة: إنها الربابة!

باكيزا: هل هناك شخص في الصندوق يعزفون له حتى ينام؟

حنيفة: طبعا! روحه صعدت للسماء والملائكة ترفرف فوق نعـشه تحملها إلى الجنة لتستقر فيها، وتعزف لها الألحان حتـى تهـدأ فـي سلام!

باكيزا: أين الملائكة؟ أنا لا أراها!

حنيفة: إنها محجوبة عنا! ولكنها دائما حاضرة معنا.. ألا تشاهديني وأنا أصلي كيف أسلّم على الملاكين عن يميني ويساري؟ الملاك على يميني يسجل حسناتي واليسار أخطائي فأحاسب عليها يوم القيامة!

باكيزا: ما معنى يوم القيامة؟

حنيفة: يوم تعود كل روح إلى ربها حين يحين أجلهـا! وحينـذاك تعزف لها الملائكة الألحان كما يسجل لها الميزان مـن حـسنات أو سيئات!

باكيزا: إنها لا تشبه الألحان التي يعزفها لي سليمان حتى أنام!

(هذا ما كانت باكيزا تذكره عن طفولتها، بعـد أن كونـت أسـرتها الكبيرة، المشهد الأخير لنعش أمها وهي لا تدري أنها ذهبت في رحلة سماوية لن تعود منها! ولا تدري شيئا عن إخوتهـا الأربعـة الـذين يعيشون في اسطنبول، ولن يرجعوا ولو في زيارة إلـى لبنـان وقـد تقطّعت أوثق علاقاتهم فيه، بعد أن علموا بوفاة أمهم شهريان!!!)

* * *